الحركات الاجتماعية في الاسلام

إن امرأ ينعم النظر في العملية الثقافية المحلية منذ النكبة، لا يسعه الا ان يلاحظ ظاهرة ذات بال. ففي حلبة الشعر تعاقبت أسماء تفوق في عددها حبات المسبحة المتعاقبة بين اصابع ناسك مفعم بالذكر. وفي ميدان القصة ترددت اسماء لا تقل عددا عن اصابع انسان سويّ. أما في ساحة البحث فقد جزلت الحاجة وشح العطاء .. واذا كانت قد اومضت من حين لحين بضعة أسماء في بضع محاولات فان اسما فريدا يكاد يفرض سمة الوحدانية على ذاته في باب البحث، هو اسم الرفيق الدكتور اميل توما.

تكاد ابحاث اميل توما تغطي مجالات الجهد الثقافي كافة فهو يخوض في السياسة ويراجح في الفكر ويستقرىء في الفلسفة ويستقصي في الاقتصاد ويداخل في الادب ويجادل في الاجتماع. قد يرى البعض ان مثل هذه الاتساع الافقي لا يتم الا على حساب العمق العامودي،بيد ان اميل توما يكاد يكون في مهمة خاصة تفرضها عليه حقيقة الحصار الثقافي الذي كابدته جماهيرنا العربية في اسرائيل، فهو، بحكم رسالته كباحث شيوعي، يرى نفسه، ونراه، ملزما بتغطية مساحات شاسعة كان من شأنه ان يترك جلها لسواه في ظروف غير ظروفنا. ومن هنا يأتي الطابع التوجيهي المباشر الذي نستطيع نعته

بالتحريضية التعبوية دون الخروج على النطاق الاكاديمي العلمي.

ليست هذه المقدمة مجاملة لصديق ورفيق، فاميل توما اصون من أن يجامل وأنا أرصن من ان اجامل، ولباب الغاية اعتراف بفضل.. ولعل في الامر، من بعد، استباقا لوقيعة قد تضمرها نفس امارة بالسوء تستقبح المراجحة الصادرة عن مريد في حضرة شيخه. وكما يلاحظ القارىء الحصيف فقد احتطت لما قد يكون من بدء ما هو كائن، حين اردفت رغبة المراجحة بنية الموضوعية في مستهل مسعاي هذا. وما كنت بمقدم أصلا، على ركوب مركب البحث التاريخي العسير لولا قناعتي الراسخة بالمسؤولية الثقافية، مسؤولية المبادلة والمجادلة والاخذ والعطاء من اجل جلوة الحقيقة وارساء الحق.

درج السلفة من علماء العرب على تذييل كل رأي يذهبون اليه في ابحاثهم بعبارة "والله اعلم".. لعلهم، او بعضهم، نحواً هذا المنحى من قبيل "التقية" التي يحتاطون بها من تهمة الزندقة.. ولعلهم، او بعضهم فعلوا ذلك من قبيل التواضع العلمي والاقرار العقلاني بنسبية الحقيقة وجدلية الوجود .. ومهما يكن من أمر السلف -صالحا وطالحا- فان اصدار الاحكام القاطعة في مسائل البحث العلمي مسلك غير محبذ إن لم يكن مرذولا، لا سيما حين يدور البحث خارج اطر الرياضيات والفيزياء والكيمياء وما اليها من علوم يجوز نعتها بالعلوم الدقيقة.

من هنا،فقد يبدو ضرباً من التلهي ان يجادل المرء في حاصل جمع الرقم "واحد" الى الرقم "اثنين"، اما في مجال علم كعلم الاجتماع فان امكان الاجتهاد فسيح للغاية واعمال الاجتهاد مجد للغاية. وفي هذا المنصرف نتناول المؤلف الجديد لا الاخير لرفيقنا الدكتور اميل توما

"الحركات الاجتماعية في الاسلام" الصادر حديثا عن منشورات "صلاح الدين" في القدس -المحتلة الى يوم صلاح الدين!

تقوم عمارة هذا الكتاب من احد عشر فصلا، يتقدمها تمهيد في كيفية فهم التاريخ، والفصول جميعا مع التمهيد الهام مشدودة شدا بعامود فقري متصل الحلقات من الغلاف الى الغلاف فلا يعترض سبيل القارىء استطراد يجوز الاستغناء عنه.

لقد صدر هذا الكتاب في مرحلة تشهد مدا زاخرا من الانفعال الديني -السياسي- الاجتماعي في منطقتنا الامر الذي يجعله كتابا "استهلاكيا" او "مادة مقررة" لكل من يتعمق الظاهرة ولا يكتفي ببسطها الإعلاميّ السيار.

من هذا المنصرف قرأنا الكتاب ومنه نرى الضرورة في تهميش بعض الطروح الواردة في الكتاب أملين ان يجتمع صواب النظر بصدق الهمة.

التشيع والمآرب القومية

يرفض الدكتور إميل توما ما يذهب اليه "أحمد أمين" في "فجر الاسلام" من ان التشيع "كان مأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الاسلام لعداوة او حقد، ومن كان يريد ادخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزردشتية وهندية ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته" .. ويرى الرفيق اميل توما ان اصحاب هذا الطرح هم من انصار الانظمة القائمة آنذاك وفي يومنا هذا.

وينهي الدكتور توما الفصل الرابع "التيار الثوري في الإسماعيلية" بالحكم التالي :"والحركات الثورية في الاسلام تبنت دائما ايديولوجية

شيعية.. وقصتها من أروع صفحات النضال من أجل الحياة الافضل ومن أجل حقهم في الخلافة باعتبارهم من آل البيت .."

في رأينا، وفي رأي الرفيق اميل توما كما نعرفه، فان التعميم والاطلاق لا يستقيمان مع جدلية البحث العلمي.

ومن هذا الموقف نبدي تحفظا من رأي اميل توما حول فكرة أحمد أمين.

فأحمد أمين لم يحكم على التشيع برمته بانه حركة معادية للإسلام، بل اكتفى بتسجيل حقيقة تاريخية معروفة عن "تسلل" عناصر قومية غير عربية الى التشيع، هناك جماعات من غلاة الفرس الذين لم يتخلوا عن المجوسية وراحوا يحاولون تسريب مبادئها تحت ستار الاسلام، اندست الى الشيعة لمجرد كونها حركة معادية للنظام، وقد اكتشف ائمة الشيعة اغراض هذه الجماعات، واتفق الحسينيون والحسنيون على رفض دعاوي اولئك الغلاة، بيد انهم (أي غلاة الفرس) واصلوا محاولتهم من خلال الفرع الحنفي في الشيعة. والى جانب قناعتنا بسلامة كفاح الاقليات القومية من اجل المساواة بالعرب في اطار الامبراطورية العربية الاسلامية، فاننا لا نستطيع تجاهل التيارات القومية "الشوفينية" بين ظهراني ابناء الاقليات القومية الذين خاضوا الصراع ضد العرب من منطلق ترجيح الغايات القومية على الاهداف الطبقية.

اما بالنسبة لحكم الرفيق اميل توما بان الحركات الثورية في الاسلام "تبنت دائما الايديولوجيا الشيعية .. وقصتها من أروع صفحات النضال من أجل الحياة الافضل ومن اجل حقهم في الخلافة باعتبارهم من آل البيت".. فان لنا ايضا ملاحظة في الامر ذلك ان اطلاق "الايديولوجيا" على التشيع لا يخلو من الابتسار، فالشيعة

تيارات متعددة وتكاد تكون متباينة ولا يجمعها تصور واحد وشامل واضح لمسائل المجتمع والحياة .. ثم اذا كانت الصبغة الطبقية العامة للشيعة تشكل صفحة "من اروع صفحات النضال من اجل الحياة الافضل"، فاننا لا نستطيع الا ان نسجل الى جانب ذلك تحفظنا من التسليم "بحقهم في الخلافة باعتبارهم من آل البيت.." لان التسليم بمثل هذا الحق يتعارض تلقائيا مع السمة الطبقية الايجابية.. ومن وجهة النظر الدينية لا يتوفر نص يؤكد هذا الحق بصورة مطلقة، ومن وجهة النظر الاجتماعية ليس تدعيم إطلاقية هذا الحق ايجابيا بالضرورة.

عن الشعوبية

"الشعوبية ايديولوجية مساواة وتعصب قومي" .. هكذا عنون الرفيق الدكتور اميل توما الفصل السابع من مؤلفه .. ولا ريب في انه مدخل موضوعي للبحث، لكن الآراء التي يتبناها الرفيق اميل باعتبارها "الاراء الموضوعية" (جورجي زيدان، فيليب حتى وجوستاف جروينباوم) ليست في الحقيقة نموذجا للموضوعية، فالموضوعية تستلزم رؤية الجانب المظلم من موضوع البحث مع رؤية جانبه المضيء. وقد شملت الشعوبية ايضا تيارات متفاوتة بعضها يدعو مخلصا الى المساواة بين العرب والقوميات الاخرى، وبعضها قام على الانتقاص من العرب في كافة المجالات والرغبة في استبدال سلطانهم بسلطان الفرس، رغم كون العرب العنصر الاساسي في الامبراطورية ومن الطبيعي أن تتجمع في ايديهم الحصة الكبرى من مقاليد السلطة لا سيما في مثل ذلك العصر. ومن قبيل الاستعجال، الزعم بأن

الشعوبية بدأت كحركة تسوية (مساواة) ثم انتهت الى التعصب القومي المعادي للعرب، فالعنصران معاء عنصر المساواة وعنصر التعصب تسايرا على طول الطريق وان تفاوت صوتاهما بين مرحلة واخرى.

وليس صحيحا قول فيليب حتى بان دعاوي الشعوبيين جاءت كرد فعل عل "ما يدعيه العرب من تفوق عقلي"، والعكس هو الصحيح، فالعناصر القومية الاعجمية المتطرفة التي سعت منذ دخولها الاسلام الى تحطيم السلطة العربية (ولا نحتج عليها في ذلك !) هي التي سعت لتشويه وتسفيه كل ما يعتز به العرب من أوجه الحضارة، وبلغت تلك العناصر مبلغ الانكار التام لاي فضل عربي في أي منزع من منازع الحياة.

ثمة مسألة يجدر بنا التنبيه اليها، وهي حقيقة البنية الاجتماعية العربية في صدر الاسلام، فلم تقم هذه البنية على التعصب القومي العربي، بل قامت على التعصب القبلي الامر الذي حدا بالموالي، لا سيما البارزين منهم، للانضواء تحت اكناف القبائل العربية من اجل النفوذ.

ثم ان الشعوبية لم تقتصر على عامة الفرس، بل اسهم فيها وايما اسهام، الدهاقين الفرس وهم الاقطاعيون وكبار ملاكي الاراضي الذين ازعجتهم الاجراءات الضريبية التي وضعها نصر بن سيار عامل الامويين على خراسان. لقد فرض نصر بن سيار الخراج على الارض وليس على الافراد، وبهذا اصبحت الحصة الكبرى من الضرائب تجبى من اسياد الارض بعد ان كانت تقع على كاهل الفلاحين عبيد الارض.

وانه لما يدعو الى الاستغراب ان الرفيق اميل توما يستنتج ان السلطة العربية فشلت في تحقيق المساواة من يومها الاول (!) وان

ممارستها السياسية "تميزت منذ اليوم الاول بعد وفاة النبي واختيار الخليفة الاول ابي بكر الصديق بتمييز العرب عامة وابناء قريش خاصة" (!!)

ان حدا ادنى من التفهم (ولا اقول الفهم) يبرر اختيار الخليفة الاول من بين اقرب مقربي الرسول، وانه لضرب من العبثية (في اهدأ وصف) ان نتوقع من اوائل المسلمين العرب الذهاب الى اقاصي خراسان للبحث عن فارسي يقبل بالاسلام لتنصيبه من ثم خليفة على المسلمين.

ثم ان اختيار أبي بكر وسائر الخلفاء كان نتيجة لظروف موضوعية جعلت الاختيار يقع عليه دون سواه ليس من غير العرب فحسب بل من العرب انفسهم ايضا.

ويغلّب الرفيق اميل الظن بان الدعوة الشعوبية "ظهرت بعد قيام الدولة العباسية وقبل ان تحيق الكارثة بالبرامكة وزراء الخليفة هارون الرشيد". الا ان المعطيات التاريخية تؤكد ان بدايات الشعوبية تعود الى زمن ابعد من ذلك، الى بدء انتصار الدعوة الاسلامية خارج النطاق العربي وعدم تسليم بعض العناصر الاعجمية بهذا الانتصار وسعيها لنقضه وتحينها الفرص لنيل وطرها.

نتوقف قليلا عند استنتاجات الدكتور توما النهائية، فهو يستخلص "امرين جوهريين": ان الشعوبية "ساعدت على تقليص التعصب القومي العربي والاستعلاء العنصري".. وانها "خلقت مناخا لنمو حركات ثورية تقدمية".. وفي كلا الامرين لنا ما يقال:

أما ان الشعوبية ساعدت في تقليص التعصب القومي العربي، فامر عكسه صحيح، ذلك ان التأكيد العربي على الثقافة العربية كان من حيث التسلسل الزمني ردا على محاولة المثقفين الشعوبيين الحط

من قدر هذه الثقافة. وقد تصدى لهؤلاء عدد من كبار المفكرين العرب والمسلمين (من غير العرب)، مثل ابن قتيبة والجاحظ والبلاذري والمسعودي والثعالبي والتوحيدي .. ثم ان التطرف الشعوبي ادى الى تطرف مضاد من جانب معارضيه قادهم احيانا الى السقوط في وهدة التعصب المعادل في القوة والمعاكس في الاتجاه.

واذا جاز القول بان الشعوبية خلقت مناخا لنمو حركات ثورية تقدمية، فانه يجوز القول ايضا بانها من جراء السمات السلبية التي طغت عليها في نهاية المطاف، شكلت عقبة في طريق الحركات الثورية التقدمية، ذلك أن القوى الرجعية استسهلت الدس على الحركات التقدمية فعلا، بنعتها بالشعوبية.

"الطائفية في العهد العثماني"

في هذا الباب يعالج اميل توما مرحلة من اشد مراحل تاريخنا حلكة.. ويركز على البؤرة اللبنانية الدموية بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٦٠ حيث دارت رحى حرب العشرين سنة الطاحنة.

كاد التأريخ لهذه المرحلة يقتصر على اتجاهين قطبيين، احدهما يذب عن الموارنة ويلعن الدروز، والاخر يفعل العكس. غير ان المنهج العلمي لن يعدم من يتسلح به في سعيه نحو الحقيقة الكاملة في نسبيتها!

وقد قيض لهذه المهمة من يؤديها على وجه حسن، وتحقق هذا الكسب في دراسة هامة حقا وضعها الباحث اللبناني التقدمي فؤاد قازان ونشرتها مجلة الطريق اللبنانية في عددها الثالث من عامها التاسع والعشرين (اذار-مارس-١٩٧٠).

ولما كان المؤرخون والباحثون يبنون استنتاجاتهم على المعطيات المتوفرة بين ايديهم بعد تمريرها في مختبر مواقعهم الطبقية والفكرية، فاننا نميل الى القول بان فؤاد قازان كان محظوظا اذ توفر له من الوثائق والمراجع ما لم يتوفر لسواه كما يبدو، الى جانب منطلقه الايديولوجي الثوري.

واذا كان الدكتور اميل توما مسلحا بالايديولوجيا الثورية، فقد ضنت عليه في هذا الباب المراجع الكافية، الامر الذي ترك في بحثه ثغرة نأمل ان نعالجها فيما يلي.

يسجل الرفيق اميل مأساة الاحتراب الطائفي في لبنان عام ١٨٤٠ ثم عام ١٨٤٥ على انه صراع بين الاقطاعيين الدروز والفلاحين الموارنة. غير ان فؤاد قازان يرى من خلال الوثائق الدامغة، ونرى معه، غير ما ذهب اليه الرفيق اميل. فالمعركة منذ بدايتها كانت بين الاقطاع اللبناني (الماروني والدرزي) وبين الفلاحين اللبنانيين (الموارنة والدروز). وحين تهدد الخطر مجمل نظام الاقطاع فقد عرض الاقطاعيون الدروز مساعدتهم على ابناء طبقتهم من الموارنة. وحين سجل الفلاحون الموارنة انتصاراتهم فقد تعاطف معهم اخوانهم من الفلاحين الدروز وبدأ التململ يشمل مناطقهم غير أن الاكليروس الماروني وفي مقدمته "المطران طوبيا عون وزمرته" (على حد تعبير فؤاد قازان) هاله الشعور بعجزه عن السيطرة على "العامية" (الكومونة) فراح يحرض الفلاحين المسيحيين ليس على الاقطاعيين الدروز فحسب بل على اخوانهم الفلاحين الدروز المتعاطفين معهم، وراح رجال الاكليروس يدعون الفلاحين المسيحيين الى طرد جميع الدروز واقتسام ممتلكاتهم، الامر الذي اثار مخاوف الفلاحين الدروز وثبط من عزائمهم وجعلهم فريسة هينة

للاقطاع الدرزي الذي جندهم من ثم للدفاع عن انفسهم !!، وهكذا انحرفت الاحداث نحو مسار الاحتراب الطائفي.

ويقول فؤاد قازان ان نفوذ الاكليروس المرتبط بالدول الاستعمارية كان قويا الى درجة انه تمكن احيانا من ايقاع الفلاحين الموارنة في شراكه، حتى ان طانيوس شاهين نفسه انساق مرة لاحابيل الاكليروس فدعا الفلاحين الموارنة لمحاربة اخوانهم الفلاحين الدروز. غير أن هذه الزلة لا يمكن أن تشوه الطابع الاساسي لحركة الفلاحين اللبنانيين الرائعة بقيادة طانيوس شاهين العظيم.

وخلاصة القول انه لا يمكن إجمال أحداث القرن التاسع عشر بانها كانت وقوع الفلاحين الموارنة ضحية للاقطاعيين الدروز بل بانها انتهت الى وقوع فلاحي لبنان في براثن الاستعمار والرجعية الاقطاعية والاكليروس.

ويقتبس اميل توما راي المستشرق السوفييتي ف. لوتسكي القائل بان "العامل المباشر الذي فجر الانتفاضة الشعبية المعادية للاقطاع والتي جرت في اعقابها المذابح الطائفية كان مرسوم الاصلاح -التنظيمات الخيرية لعام ١٨٥٦". وهذا الاجتهاد خاطىء من اساسه والصحيح هو ان هذا المرسوم جاء نتيجة للهبات الفلاحية ومحاولة لاجهاضها واحتوائها، ولا يعقل من ثم ان تكون المراسيم الرسمية انذاك غير ذلك. وهناك اسباب ودوافع اكثر مباشرة كزيادة الضرائب والتنكيل الوحشي الذي انزله الاقطاعيون الموارنة في فلاحيهم، والذي بلغ درجة القتل دون عقاب واغتصاب النساء والفتيات وقتل فتاة حملت نتيجة للاغتصاب واهانة شيوخ الفلاحين في كل مناسبة وما الى ذلك من ضروب الاذلال وفنون التعذيب.

ختاما....

ختاما لهذه الملاحظات والهوامش، نعود على بدء، فنؤكد على أهمية الكتاب ومغزى صدوره في مثل هذه الظروف حيث يحتدم الصراع الفكري في الوطن العربي وفي المنطقة بأسرها.

ورغم ما قد نراه مأخذا هنا وهناك، فان كتاب الدكتور اميل توما "الحركات الاجتماعية في الاسلام"، يظل سلاحا فكريا نشهره في وجه اولئك الذين يجهدون عبثا لتجنيد الاسلام في خدمة مصالحهم الطبقية وغاياتهم المعادية لروح الاسلام والمعادية للشعوب العربية والاسلامية. ونأمل ان يسهم هذا الكتاب في اعانة العرب والمسلمين على استلهام الصفحات المشرقة في تاريخنا، صفحات الكفاح الشعبي العادل من اجل المساواة والتقدم.

«الاتحاد» ١٩٨٠/٢/٨